فهرس الجزء الرابع

من المجلد الثالث عشر بعد المئة

٢٤٥ الروحانية وتطورها عند البدائيين وفي العصر القديم : اسماعيل مظهر
٢٥٢ الارشاد الاجتماعي وعلى أي أساس يجب أن يقوم : جمال الدين حمدي
٢٥٨ جيزيل ابنة الامبراطور شارلمان : ماري هندرسون : ترجمة الآنسة نعمت حسني
٢٦٩ طليطلة : محمد رجب البيلي (مصورة)
٢٧٧ ذكرى يوهان ليندهارد : لدجر كراج السويدي : ترجمة أبي سلمى
٢٨٠ صيد الاسفنج في خليج المكسيك : أمين عبده
٢٨٥ وصف العاصفة عند امرئ القيس وعند فرجيل : الاب فريد جحر الغازوي
٢٩٢ المجتمع والسياسة في الادب المصري الحديث : هيراود ديون : ترجمة وديع فلسطين

٣٠٩ باب ملكة المرأة * وفاء امرأة . من شهيرات النساء : ايليا سالبوري . بائعة ترام . أنشودة البراعة الوطنية . الطفل في مراحل نموه . قواعد ذهبية لمن يريد أن يحفظ صحته . أقوال في المرأة : السيدة انصاف عصمت
٣١٧ باب المراسلة والمناظرة * تعليق على مقالين : رشيد السعد
٣٢٠ مكتبة المقتطف * معجم الاعلام : تمثيلا الجماد . قصة القدرة
٣٢٣ الاخبار العلمية * معهد التحريات الصناعية . صناعة تماذج الطائرات . اكتشاف علاج للحمى الراجعة . زيادة مطردة في انتاج المانيا من الصلب والفحم . زيادة الانتاج في الولايات المتحدة . لجنة استشارية اميركية لاستغلال المواد الذرية . برامج وزارة الزراعة الاميركية لمكافحة الحشرات الضارة بالحبوب . تأثير الاشعاع الذري على الحيوان والنبات بعد تجربة القنبلة الذرية . توليد وقود من النفس لتدفئة المنازل وادارة المصانع

ملحق المقتطف

١ — ٣٦ العجل الابيض : عن فولتير : ترجمة جلال مظهر

العجل الأبيض

ترجمة : عن فولتير

الفصل الاول

كيف قابلت الاميرة أمازيديا عجلاً

خرجت الاميرة أمازيديا إبنة ملك تنيس بمصر تتجوّل في طريق فلوايوم مع نسائها حاشيتها ، وقد ضمرها تأثر شديد فانحدر الدمع من عينيها الجميلتين . وكان سبب حزنها معروفاً ، أضف الى ذلك المخاوف التي أضمرتها حذر أن يكدر هذا الأمر والدها الملك . وكان مامبرس العجوز خصي القراعة وساحرهم القديم الى جانبها في ذلك الحين ، فانه نادراً ما كان يفارقها ، فتدشهد ولادتها ، ثم تثقفها وعلمها كل ما كان يسمح به ، من علوم مصر لاميرة جميلة طاهرة الذيل . ولقد تساوت في أمازيديا درجتا العقل والجمال ، كما كان فيها من رقة العواطف ودقة الشعور ما يغشى على مفاتنها الجسمانية ، وأما هذه العواطف فقد حملتها كثيراً من التكاليف .

كانت الاميرة في الرابعة والعشرين ، ودانى مامبرس الثلاثة عشرة مئة ، وهو كما يعرف الجميع ذاك الذي كانت له تلك المجادلة الشهيرة مع موزيس ، حيث كان النصر الى حدّ بعيد مشكوكاً فيه بين هذين الفيلسوفين العميقين . ولئن سلم مامبرس في النهاية ، فذلك يرجع الى حماية القوة السماوية التي حابت مناقشه . فالتمست من الآلهة أن تقهر مامبرس !

عينه أمازيس رائداً لابنته ، فحصر في ذلك كل عنايته مستعيناً بحكمته المجردة ، أما دموع أمازيديا الثائرة فكانت مثار حنانه وشفقته .

قالت تناجي :

يا لعجب ، يا حبيبي ، يا صغيري ، يا حبيبي العزيز ! يا أعظم القاهرين ، يا أكمل الكاملين ، يا أجل الرجال ! إختفيت من العالم زهاء سبع سنين ، أي إلـه اختطفك من

أمازيديا الحنون ؟ أأنت لم تَرَ ؟ إعترفي بذلك أنبياء المصريين الحكماء ، ولكنك في حكم الميت بالنسبة اليّ ! أراني في هذه الدنيا وحيدة ، فكأنها قبر مجدب . بأية أعجوبة غارقة هجرت عرشك وحبيبتك ؟ ولئن كان عرشك أعظم عروش الدنيا فان ذلك أمراً قليل الغناء ، أما أن تهجرني ، فمن ذا الذي يصدك ويهيم بك ! يا للعجب ، ياحبيبي ...

قال مامبرس خصي الفراعنة وساحرهم القديم « إنك لترتعدين خشية التفوّه بهذا الاسم المشئوم ، قريباً يكشف عن سرك بعض نساء حاشيتك ، فكلهنّ شديدات الحقد عليك ، والواقع أن النساء البيضات يتخلقن من إرضاء عواطف الأميرات المستاءات مثوبة ، لكن قد يتفق ان يكون بينهنّ فضولية ، أو خائنة مغرّرة . وتعلمين كذلك أن والدك قد أقسم بقتلك برغم حبه لك . ان ذلك الاسم المرعب يدور دائماً على شفتيك . وهذه شريعة قاسية ، غير أنك تفقهت بالحكمة المصرية ، فلا تجهلين طبعاً حكم القانون . تذكري بأن « هوفوقراط » أحد آلهتنا الصغار ، كان يضع أصبعه دائماً فوق شفتيه .

بكت أمازيديا الجميلة ثم صمتت .

تقدمت نحو شاطئ النيل تكتنفها الهموم ، وتساورها الشجون ، فلحظت من بعد وعقربة من غابة يشقها النهر ، إمرأة عجوزاً في أسمال وثة رمادية اللون ، تجلس من فوق رابية صغيرة ، والى جانبها أتان وكلب وقيس وأمامها حيّة لم تكن كباقي الحيات المألوفة فكانت عيناها وديعتان ، ومنظرها فاتر فاتن ، ومن إهابها تبدو أزهى الألوان وأبهجها ، ثمّ ثور كبير مغمور الى نصفه في النهر ، وعلى شجرة مجاورة جثم غراب وحمامة ، فبدى لأمازيديا أن هذه المخلوقات ، إنما مضت تتجاذب أطراف حديث هام .

قالت الأميرة بصوتٍ خافت « تتكلم هذه الحيوانات بغير شك عن غرامها . . »

* * *

أما العجوز فكانت ممسكة بسلسلة محلية من الذهب ، طرفها مثبت بذراع ، ورابط إليها حمل يرعى في المرج . أمّا هذا الحمل فأبيض متناسق جميل ، فيه رشاقة وخفة ، فكان من النادر وجود مثله . إنه في الحقيقة أجمل مثال شوهد بين أفراد نوعه ، فلا عجب « باسيفية » Pasiphæ ولا ذلك الذي تقمص المشتري صورته عندما حل أوروبا ، كانا ليقدرا بهذا

الحيوان الفاخر ، غير أننا لو قرنا به العجل الفأفاء الصغير الذي تقدمه إيزيس لكان جديراً أن يكون كنزاً يؤنسه أو يصادقه .

عندما رأى العجل الأميرة ، جرى نحوها ، بسرعة مهر عربي صغير ، ناسياً أذنيه فوق سهول وأنهار سانا Saana القديمة ليدنو من زوجته الحسناء التي تحتكم سوريا في فؤاده .

إستعملت المرأة كل ما لديها من قوة لتكبح جماح العجل ، وحاولت الأفعى أن تلسعه بصفيرها ، وتبعه الكلب وعض أطرافه الجميلة ، واعترضت الأتان طريقه وركلته ، أما الثور الكبير ، فانغمر في النيل ثم وثب ثانية من الماء مهدداً بابتلاعه ، أما التيس فثبت في مكانه واجلاً يبدو عليه النوع ، ووقف الغراب فوق رأسه كأنه يريد أن يحمي عينيه ، وشاركته الحمامة بدافع الفضول ، وأعربت له عن استحسانها بهمسات عذبة .

أسلم هذا المنظر الخلاق مامبرس الى تأمل عميق ، بينما كان العجل قد بلغ الى حيث كانت الأميرة ، جاذباً من خلفه العجوز ، وبيدها السلسلة ، فتقوضت الأميرة وأخذ منها الرعب . أما العجل فحين بلغ الأميرة ، ألقى بنفسه عند قدميها وقبلهما ، فأنس الثور ، ثم نظر إليها بعينين يفيض منهما مزيج غريب من الأسى والفرح ، ولم يجرؤ على الحوار خشية أن يرعب أمازيديا الفاتنة ، وكذلك حُصر عن الكلام اذ لم تسعفه القدرة الصوتية الواهنة التي وهبتها السماء لبعض المخلوقات . إلا أن كل حركاته كانت فصيحة بليغة ، فالتمرغ الأميرة وأدركت أن اللهو والتسلي على تفاهتهما ، ربما خففا بعض الشيء حتى أعظم الأحزان مرارة وحدة .

قالت : هنا أكثر الحيوانات حبّاً الى قلبي ، وأرغب في لحظة أن أنسى حظيرتي .

لما سمع العجل هذه الكلمات إنحنى على ركبتيه وقبّل الأرض .

صاحت الأميرة : إنه يعي ما أقول ، ويبين لي أنه يرغب في أن أتملكه . عجباً أيها الساحر السماوي ! عجباً ! أيها الخصي المقدس ! إشتر هذا العجل الجميل ، إشتر على الفور مع العجوز التي لا أشك في أنه ليس ملكاً لها ، لابدّ وأن يكون هذا الحيوان ملكي ، وحجر ألا تحرمني هذه اللذة البريئة .

ضمّ جميع النساء أصواتهنّ الى توسلات الأميرة ، فاستسلم لهنّ مامبرس ، وترجه ليبحث العجوز .

الفصل الثاني

كيف تعرّف مامبرس على العجوز وكيف عرفته

قال مامبرس « إنك تعلمين يا سيدتي ، بأن السيدات وعلى الأخص الأميرات الصغيرات في حاجة الى التسلية ، وأن إبنة الملك مغرمة بحلك غراماً شديداً ، فأتوسل اليك أن تبيعيها إياه ، وسأدفع لك الثمن فوراً »

أجابت العجوز « إن الخيزران الكريم الذي تراه ملكاً لي يا سيدي ، وإنما هو أمانة في عنقي ، وعليّ ، على كل التحوط التي شاهدتها واجب ، هو أن نفي به ، ونرقب جميع حركاته ، ثم نقدّم منها حساباً دقيقاً . وقد أقسم الله أن يكون لي أي ميل في بيع هذا الحيوان الذي لا تقدّر له قيمة »

بدأ مامبرس في أثناء هذا الحديث يستعيد ذكرى مشوّشة ، لشيء لا زال غير مستبان تماماً ، ولم يتمكن من استيضاحه ، فنظر الى العجوز ذات الرداء الرمادي ، بكثير من الانتباه والدقة .

ثم قال « إما أن أكون مخطئاً أيتها السيدة المحترمة ، وإما أن أكون رأيتك قبل ذلك »

أجابت العجوز : « إني لا أخطئ ، فقد رأيتك منذ سبعمائة سنة ، في أثناء رحلة قمت بها من سوريا الى مصر ، بعد شهور قليلة من تدمير « طروادة » Troy وكان ذلك في الوقت الذي حكم فيه « ديرام الثاني » صور ، وفيفل كريس Hephel Kris في مصر السفلى »

صاح الرجل العجوز : « يا للعجب ! أأنت إذن يا سيدتي ساحرة « إندورة » العجيبة ؟ »

قالت الساحرة وهي تعانقه « وأنت أيها السيد ، ألست مامبرس مصر العظيم ؟ »

قال مامبرس : « يا للعجب ! إنه لقاء غير منتظر ، ويوم يستحق الذكرى ، تلك هي المقدّرات الأزلية . إن مقابلتنا مرة ثانية في هذا السهل على شطآن النيل بجوار مدينة

تنيس القضية ، لم تكن على وجه التأكيد بغير إذن من عناية الله الشاملة . واستطرد ماسرس قائلاً . ماذا أحقيقة أنك أنت التي ذاعت شهرتها وطبقت الآفاق على ضعاف غير الأرنب الصغير ، الذي هو نهرك ، وأنك أعظم شخصية في الدنيا فلو صبتها بأزهار الخلود على بعث أشباح الموتى ؟ »

أجابت الآنسة إندور : « ماذا ! أأنت ذاك الذي اشتهر بأنه يلمع النهار أثناء والنهار ظلاماً ، وماء الأنهار دماء ؟ »

قال ماسرس « نعم يا سيدتي ، لكن عجب عني الكبر بعضاً من معرفتي وقولي ، غير أني أجهل مصدر هذا العجل الجميل ، وما هي تلك الحيوانات التي تتمتع بدلك من حراسته بهذا الانتباه » .

رفعت العجوز عينيها الى السماء ، واستعادت ذاكراتها ثم قالت :

« إننا لدوي مونة واحدة يا عزيزي ماسرس ، غير أنه محرم عليّ كل تحريم ، أن أخبرك من أمر هذا العجل شيئاً ، لكن يمكن إرضاء رغبتك بالنسبة لباقي الحيوانات ، وقد يمكنك معرفتها بسهولة من العلامات التي تميزها . فهذه الحية هي التي أغرت حواء أن تأكل وزوجها تفاحة ، وهذه الأتان هي التي تحدثت الى معاصرك بلعام Balaam بالحديث العجيب الغريب ، وهذا الحوت الذي يرفع رأسه دائماً من فوق الماء ، هو الذي بلع يونس منذ ستين قليلة ، والكلب هو الذي تبع روفائيل وتوبيت الصغير في رحلتهما الى راجيز في مقاطعة ميديا في زمان سلمنزار الأكبر . وهذا القيس هو الذي كفّر عن ذنوب ملكتك كليا . أما الغراب والحمامة فكانا في سفينة نوح . حوادث فلة ! نكبة كونية ! يكاد أكثر الناس على غير علم بها . أما العجل فلن تعلم منه شيئاً » .

قال ماسرس وقد أصغى باحترام .

« يا للعجب أيتها الساحرة الأبدية الدائمة الصبت ! إن الأولى لكشف وتحقي ما يدين له إن كل هذه الحيوانات التي عهد لها بحراسة العجل الأبيض لا تعرف إلا في مملكتك المحبوبة الكريمة ، التي هي قصيا غير معروفة تقريباً لجميع العالم ، إن الأعاجيب التي أنبأتها مع خاصتك ، وتلك التي قمت بها وحدك ، ستكون ذات يوم موضوعاً لتشكوك والمناحثات

بين الفلاسفة المدققين الباحثين ، لكن سينتبلها بكل سرور أولئك الذين يعتبرون الذين سوف يلزمون المتنورين بالخضوع لما في ركن مّا من أركان العالم ، وهذا كل شيء »

لما انتهى مامبرس من حديثه جذبته الأميرة من كمه قائلة :

« ألا تشتري عجلي يا مامبرس » .

أوغل الساحر في عميق الفكر ولم يجب ، ولاحت من عينيه أمارات الدهشة ، وتقدمت نحو العجوز قائلة أستحلفك يا سيدتي القاضية بكل ما تكنين في نفسك الشيطانية من نفيس ، أستحلفك برأسك وبوالدتك وبموضعك التي لا تزال بكر تأكيد من أنيس الحياة ، أستحلفك بهم جميعاً ليس فقط لتبيعي عجلك ، لكن حاملك أيضاً حيثما تبدي شغفاً كثيراً به » .

أما الحيوانات الأخرى فلا أريدها ، لكن أفعل كل مستحيل إذا أنت لم تبيعي هذا العجل الفاتن الذي سيكون كل سعادتي في الحياة » .

« ليس العجل يا أميرة للبيع . أطرت بذهنك ساحرك المسني ، وكل ما يمكن أن أفعله من أجلك هو صاحبي له بالرعي بجوار قصرك . فيمكنك أن تغذيه وتسقيه له فاكراً ، وترقصيه فيدخل في نفسك السرور ، لكن لا بد وأن يكون دائماً تحت أعين هذه الحيوانات جميعاً والتي عهد إليها معي بحراسته والسهر عليه . ولو أنه لم يسع الهرب ، إذن لكانوا مسالمين وادعين ، غير أنه لو حاول مرة ثانية أن يحطم سلسلته كما فعل عندما شاهدك ، فالويل له . ولن أكون حينئذ مسؤولة عن حياته فسوف يبتلعه هذا الحوت بغير رفع ، ثم يحتفظ به أكثر من ثلاثة أيام في جوفه ، أو تبتلعه هذه الحية ، التي تلوح وادعة ، لدغة لينة » .

قبل العجل الأبيض التي فهم بوضوح حديث العجوز جميع المقترحات وهو خاضع مستكين غير أنه لم يتسن له الكلام ، فنام عند قدمي الأميرة وخار خواراً ناعماً ونظر إليها بحنان عظيم كأنه يقول :

« تعالي وشاهديني عند المرج بعض الأحيان » .

والآن اشتركت الحية في الحديث .

قالت « أنصحك أيتها الأميرة ، أن تتبعي بثقة الخطة التي نصحتك بها السيدة إندور »

وهكذا تكلمت الأتان وكانت من رأي الأفعى .

حزنت أمازيليا حزناً شديداً ، ذلك بأن الحية والأتان تكلمتا بفصاحة مماثلة في غير أن الطفل الجميل ، ذا العواطف الشريفة الحنون ، كان عاجزاً عن محاورتهما .

وهمست بصوت خافت « واحسرتاه ! لا شيء هنا أكثر مما يرى عادة في البلاط ، فهناك يشاهد الانسان أسياداً متأنقين ، عاجزين عن المناقشة والتحدث ، وأشقياء حقراء يتكلمون بفصاحة وثقة » .

قال مامبرس « ليست هذه الحية شقية حقيرة ، فربما كانت تمثل شخصية فائقة الاعتبار » .

مال ميزان النهار ، ولا بد من عودة الأميرة الى القصر ، لكنها وعدت بأن تعود في اليوم التالي في نفس الساعة ، أما سيدات حاشيتها فمضين وكن غير فاهمات شيئاً مما سمعن أو رأين ، أما مامبرس فأهمل الفكر العميق .

لما تذكرت الأميرة بأن الحية نادت الحجوز بقولها يا آنسة ، استنتجت بأنها لا تزال آنسة ، فأحست ببعض الغم والكدر ، ذلك بأنها كذلك كانت ، غير أنها أخفت حزنها العظيم ، بنفس العناية التي أخفت بها اسم حبيبها .

الفصل الثالث

كيف تحدثت الأميرة مع الأفعى حديثاً سرياً

أوصت أمازيليا الفاتنة وصيفاتها أن يحتفظن بما شاهدنه سراً إلا يبحن به ، فوعدنها جميعاً بذلك ، واحتفظن بوعدهن يوماً كاملاً . وربما ساورنا اعتقاد بأن أمازيليا لم تنم إلا قليلاً تلك الليلة ، فكأنما كانت تستعيد من لحظة لأخرى صورة عجيبا الجميل مأخوذة بفتنة يجل عنها الوصف . ولهذا فإنها سرعان ما اختلت بعامبرس الحكيم حتى قالت :

« عجباً أيها المحنك الفطن ! لقد ذهب هذا الحيوان بلبي » .

قال عامبرس « وكذلك هو يشغلني كثيراً ، وأرى بوضوح أن هذا العجل إنما هو يعلو كثيراً على أفراد نوعه ، وأدرك أن في الأمر سراً رهيباً ، وأتوقع حادثاً مروعاً . إن والدك أمازيس شكاك قاس ، وتتطلب منك هذه المشكلة أن تتصرفي بحذر عظيم » .

قالت الأميرة « عجباً ! لقد دخل عليَّ من الفضول ما أضعف تبصري ، إن هذه العاطفة هي الوحيدة التي يمكن أن تتحد بقلبي ، مع تلك التي جعلت مني فريسة بسبب حبيبي الذي فقدته ، ألا يمكنني أن أعرف ما هذا العجل الذي أزعجني إزعاجاً غريباً » .

أجاب عامبرس « لقد إعترفت لك فعلاً وبإخلاص ، بأن معرفتي تنهار بنسبة ما يتقدم بي العمر ، لكني أكون مخطئاً خطأ عظيماً لو لم تكن الحية أخبرت بما يرغبين معرفته بهذا الإلحاح ، فإنها لا تنقصها الفطنة ، وهي تعبر عن آرائها بدقة وحكمة ، ثم إنها تعودت منذ زمان بعيد أن تتدخل في أمور النساء » .

قالت أمازيليا « إنها من غير شك أفعى مصر الجميلة ، التي بتثنيها ذيلها في فمها أضحت شعار الأبدية وهي التي نورت العالم حين فتحت عينيها وأطلعته حين أغمضتهما » .

— كلا يا آنسة .

— أهي إذن أفعى استولافيوس .

— ولا هي كذلك .

— لعلها يربتر في اهاب أفعى .

— كلاّ ثم كلاّ .

— عجباً ! نعم ! نعم ! إنها العصى التي حوّلتها أنت من قبل أفعى .

— لا ، ليست هي في الحقيقة تلك الأفعى ، إنما الأفعى جميعاً من نفس الفصيلة ؛ وهذه بالذات لها مكانة عظيمة في وطنها ، فانها تعتبر هناك أغرب وأعجب حية شوهدت . قدّمي نفسك لها غير أني أحذّرك فان ذلك عمل جد خطير ؛ ولو أني كنت في مكانك ، لما أزعجت نفسي بالعجل والأتان والثيس والحية والسكة والغراب والحمامة ، لكن تدفعك الشهوة واشتهال النفس ، وكل ما يمكن أن أفعله هو أن أشفق عليك وأرثي فرقاً » .

تاشدته الأميرة أن يقدّمها للحية حتى تستطيع مخاطبتها ، فوافق مامبرس ، وكان مبالاً لاسداء صنيع للأميرة ، ففكر طويلاً واستعمق ، ثم ذهب الى الساحرة ، وسرد لها بعربية لطيفة مستعذبة رؤوة خيال الأميرة . فأخبرته العجوز بموافقتها وقالت إن الحية نبيلة النشأة ، على أدب جم مع النساء ، وأنها لا تبغي من شيء سوى إسداء الجميل لمن ، وإنها سوف لا تتدخل في إخبار الأميرة بما تريده .

عاد الساحر القديم ليلبأ الأميرة بهذه الأخبار السارة ، لكنه كان ما يزال يخفي كارثة ما ، ومضى يتأمل في الأمر .

قال « ترغبين يا آنسة في أن تتحدثي الى الأفعى ، وهذا أمر تستطيعينه في أي وقت يلائم هواك ، لكن تذكري بأنه لا بد من أن تحدثيها ؛ ذلك بأن كل حيوان يحب نفسه حبّاً جمّاً ، وعلى الأخص الحيات ، فقد قيل بأنها طردت قديماً من السماء لزهوها الشديد »

قالت الأميرة « لم أسمع شيئاً عن ذلك » .

قال الرجل المسن : « اعتقد ذلك » . ثم أخبرها بكل ما ذاع من الأخبار عن هذه الأفعى الشهيرة . ثم استطرد قائلاً « لكن يا عزيزتي الأميرة ، تذكري بأنه مهما يكن من أمر المغامرات الفريدة التي رفعت لها ، فانكِ لن تستطيعي سلب هذه الأسرار منها إلاّ بالتملق

وعما أنها خدعت النساء في قديم الزمان فان من العدل أن تخدعها حينئذٍ إمرأة » .

قالت الاميرة « سأفعل ما في جهدي »

خرجت أمازيديا مع نساء حاشيتها ، وكانت العجوز على مسافة بعيدة ، وحينئذٍ ترك ماميرس الاميرة ، وأخذ يجاذب الساهرة أطراف الحديث ، كما تحدثت إحدى وصيفات الشرف مع الاتان ، وسلّى الأخريات أنفسهن بصاحبة الابل والكلب والغراب والحمامة ، أما الخوت الكبير ، الذي يوقع الرعب في قلب من يشاهده ، فقد انغمر في النيل طوعاً لأمر العجوز .

صحبت الأفعى أمازيديا الفاتنة الى خيلة مجاورة حيث دار الحديث الآتي :

الأفعى — إنك لا تتصورين يا آنسة مقدار انخداعي بالشرف الذي تلطفت فأضفيته على شخصي .

الاميرة — إن شهرتك العظيمة يا سيدتي ، وبهاء محنتك ، وتألق عينيك ، شجعني على أن أطلب منك هذا الحديث . إني أعلم من الاخبار الشائعة — إن لم تكن كاذبة — بأنك كنتِ فيما قبل سيدة عظيمة في السماء الطاهرة .

الأفعى — هذا حق يا آنسة ، فقد كان لي هناك مكانة عظيمة ، وأدّعي بأني حظية مهانة وهذه حكايات شاعت في الهند ، وأول من أرّخ مغامراتي هم البرهميون ، ولن يداخلني شك في أن مغامراتي هذه سوف تكون يوماً ما موضوعاً يتخذه شعراء الشمال ، لشعر حامي متطرّف ، لأن ذلك في الواقع هو كل ما يمكن أن ينتج منها ، على أني حتى الآن لم أتحدر انحداراً كبيراً ، غير أني تركت في كرة الارض مملكة واسعة الارجاء يمكنني أن أتجرأ فأؤكد بأن الارض جميعها ملك يميني .

الاميرة — أعتقد ذلك ، لأنهم أخبروني بأن قوة إغرائك شديدة لا يمكن مقاومتها وإدخال السرور الى النفس هو عين التحكم فيها .

الأفعى — أشعر يا آنسة ، بينما أنا منصرفة اليك مصغية ، بأن لك عليّ قوة تشابه نفس القوة التي تنسبينها اليّ على الآخرين .

الاميرة — أعتقد بأنك فازية محبوبة ، وقبل بأن غزواتك على الجنس اللطيف كانت

حديدة ، وإنك بدأت بأمنا جميعاً — التي نسيت اسمها لسوء الحظ — .

الأفعى — لقد ظلمني أولئك الذين ادعوا ذلك ، ولقد شرّفتني بتقدمها ، فقدمت لها أطيب نصيحة ، ورغبت في أن تأكل هي وزوجها من شجرة المعرفة بهم وشهية ، ولقد خيل إليّ أنني بفعلتي هذه — وهي ضرورية للجنس البشري — أني سوف أرضي باريء الأشياء ولاح لي بأنه لم تزرع شجرة منّا لتكون عارية من الفائدة كلية . وهل أراد الكائن الأعظم أن يعبده الجهلة والمغفلون ، ألم يكن العقل ليحصل به على المعرفة والتقدم ؟ أليست معرفة الخير والشر ضرورية لعمل أحدهما وتجنب الآخر ؟ إني موقنة بأني إنما استأهلت شكرها .

الأميرة — لكنني أخبرت بأنك جئت من أجل ذلك ومن المحتمل أنك قاسيت منذ العصر الذي عوقب فيه كثير من الوزراء لحسن نصيحتهم واضطهد فيه كثير من الفلاسفة والمبادرة جزاء ما كتبوا ، وكان مفيداً للنوع البشري .

الأفعى — إنهم أعدائي الذين أخبروك بهذه الروايات ، فيقولون بأني مكروهة في البلاط ، لكن البرهان على أن تعودي هنالك لم يبن ولم يضعف بعد ، إعترافهم بأني شهدت المجلس الذي انعقد لمحاكمة أيوب الفاضل ، ثم دعيت ثانية عندما صمموا على أن يخدعوا ملكاً من عمل الملوك يدعى آحاب ، فعهد إليّ بشرف الإنفراد بتأدية هذه الرسالة .!

الأميرة — عجباً يا سيدتي ! لا أعتقد بأنك خلقت للخداع ، لكن حيث أنك دائماً في الحاضية ، أفيمكن أن أطلب منك خدمة تؤديها لنفعي ، وإني لآمل ألاّ تهملني سيدة محبوبة مثلك .

الأفعى — رغباتك أوامر يا آنسة ، عدّدي مطالبك .

الأميرة — أتوسل اليك أن تخبريني ، من هذا العجل الأبيض ، ذي الشعر المموه بسوالف شاذة ، تؤثر في نفسي وتزعجني ، ولقد أخبرت بأنك سوف تتنازلين متلطفة وتخبريني بذلك

الأفعى — إن الفضول ضروري لطبيعة البشرية ، وخاصة لجنسكن المحبوب ، ولولاه لعاش الناس يكتنفهم أخرى الجهل ، فإني كنت دائماً أرضي فضول النساء بكل ما أوتيت من قوة ، وفي الحقيقة ، أسمحت بأني لا أستعمل هذه الوسيلة الهامة إلا لإرضاء باريء

الكون . أقسم لك بأني لا أتمكن من أن أتصوّر شيئاً هو أحب الى نفسي من طاعتك . لكن لا بدّ وأن تكون العجوز قد أخبرتك بأن كشف هذا السر سيكون مصحوباً ببعض المخاطر

الأميرة — نعم ! هذا هو الذي يضاعف فضولي .

الأفعى — اذن فقد اكتفيت بالذي قدمت له خدماتي قديماً .

الأميرة — لو أن لك إحساساً ما ، لو أن المخلوقات الناطقة تتبادل المساعدة ، لو أن لك شفقة هل مخلوقة تعيسة ، فلا ترفضي طلبي .

الأفعى — إنك لتثيرين حناني ، ولا بدّ أن أرضيك ، لكن لا تقاطعيني .

الأميرة — عدك بألاّ أقاطعك .

الأفعى — كان هناك ملك شاب ، جميل فتّان ، محبوب جداً .

الأميرة — ملك شاب ! جميل فتّان ! محبوب جداً ! من يشبه ؟ من هذا الملك ؟ كم كان عمره ؟ الى أي شعوب صار أمره ؟ أين مملكته ؟ ما إسمه ؟

الأفعى — أصغ إليّ ، فها قد شرعت في الحديث ، ولم أكد أبدأ . إحذري ، فإذا لم تكوني أكثر ضبطاً لنفسك من هذا ، فقد قضي عليك .

الأميرة — عجباً ! أغفري يا سيدتي ، سوف لا أتورط في عدم التبصر مرة أخرى ، استمرّي . أتوسل إليك .

الأفعى — كان هذا الملك العظيم ، أشجع الرجال ، منتصر حيثما يحمل سلاحه ، وكان كثيراً ما يحلم ، ثم ينسى حلمه حين يستيقظ ، فيطلب من سحرته أن يتذكروا له تلك الأحلام ، ويطلعوه على تفسيرها ، وإلاّ شنقهم — وليس من شيء هو أعدل من هذا — ولقد مضى زهاء سبع سنين منذ أن حلم حلماً جميلاً ، نسيه تماماً عندما استيقظ ، فلما فسر له شاب يهودي ، عظيم النجاريب ، تحوّل هذا الملك المحبوب في الحال عجلاً ولهذا ...

الأميرة — آه ! إنه عوزني إذن ...

ثم عجز لسانها ، وانتابها إغماء ، فلما رآها الأفعى تسقط ، وكان يعنى من بعد ، إعتقد بأنها ماتت .

الفصل الرابع

كيف أرادوا قتل العجل ، ورقية الأميرة

عدى طامبرس نحو الأميرة باكيًا ، وانتاب الأفعى حزن شديد ، غير أنها للأسف عاجزة عن النحيب . لكنها صفّرت صفيرًا حزينًا ثم صاحت « إنها ميتة » وردّدت الأتان « أنها ميتة » ، وكذلك صاح الغراب ، وبدى على باقي الحيوانات حزن بالغ وألم عميق ، ما عدا تمكة يونس ، فإنها كانت دائمًا قاسية ، فلم تبد شيئًا من ذلك .

وصل نساء البلاط ، ووصيفة الشرف حيث كانت الأميرة ، ورفّفن شعورهن ؛ أما العجل الأبيض الذي كان يرعى عن بعد ، وسمع الصياح ، فقد جذب من خلفه العجوز ، وجرى نحو الحيلة مسرعًا ، بينما كان خواره الشديد يملأ أرجاء الناحية ، وسكب النساء على أمازيديا المحتضرة زجاجات من ماء الورد والقرنفل والريحان السنجابي ؛ لكن عبثًا ، فإنها لم تبد شيئًا من علامات الحياة ، حتى اللحظة التي أدركت فيها أن العجل الأبيض الجميل يدانيها فأفاقت وهي أشد بهاء وأروع جمالاً وحيوية عن ذي قبل ، ثم أقبلت على هذا الحيوان الفاتن الخلاب تقبله آلاف القبل ، فمال برأسه المعقب على صدرها المرمري ، فناداه قائلة « ياسيدي ، يا ملكي ، يا عزيزي ، يا حياتي » ثم ألقت بيديها الظاهرتين حول رقبته الناعمة كالجليد . عجبًا ! لا يعلق القش الخفيف بالكرمان ، ولا الكرم بالدوار ، ولا القلاب بالبلوط . ولقد ظلت تتنهدها تنهدات عذبة رقيقة ، كما شوهدت عيناها ، تتألق فيهما شعلة الحنان ، تارة ، وتحملهما الدموع الغالية التي يكلفنا إبادا الحب تارة أخرى .

يمكننا أن نقدّر بسهولة مقدار ما داخل نساء الحاشية من التعجب والدهشة ، فإنهن سرعان ما وصلن القصر أن يحكين لأحبائهن تلك القصة النادرة ، فقد قصصنها بتفاصيل مختلفة زادت من تشويهها وغرابتها ، وهذا ما يساعد دائمًا على تباين الروايات .

وما أن أخبر أمازيس ملك تنيس بهذه الحوادث ، حتى اشتعل صدره الملكي بغضب عظيم ، وهكذا كان حنق مينوس عندما أسرفت إبنته باسيفية في حبها العاطفي نحو ولد مينوطور ، وكذلك ثارت وغضبت يونون عندما بصرت بريبتر وهو يلاطف البقرة إيون الجميلة ، إبنة النهر إيناخوس . أما وقد اتسع أمازيس الصارم ما قلبه انفعالات النفس فقد حبس ابنته النبيلة أمازيديا الفاتنة في غرفتها وأقام عليها حراساً من الخصيان السود .

ورأس الساحر التديم ، جمعية الوزراء ، لكن لم يعد له بعد ، من تأثير وسلطة ما كان له أولاً ، أجمع وزراء الدولة على أن العجل الأبيض ساحر شرير ، والحقيقة غير ذلك تماماً ، فإنه مسحور ، غير أنهم دائماً ما يخطئون في المسائل الدقيقة في البلاط .

أجمعت أغلبيتهم المطلقة على أن رقية الأميرة واجبة ، كذلك صمموا على قتل العجل والعجوز ، فلم يعارض مامبرس الحكيم فكرة الملك والجمعية ، فكان له حق الرقية ، ويمكنه أن يؤخر رقية الأميرة تحت ستار من الاحتجاجات الصائبة ، فأخيراً مات الاله آبيس في تنيس « مات إله عجل كما يموت عجل آخر » ولم يكن مسموحاً بأن يرق أي إنسان في أنحاء مصر جميعاً قبل أن ينصب عجل مكان الذي مات .

أصدرت الجمعية قراراً يقضي بتأخير الرقية حتى ينصب الاله الجديد في تنيس .

حينئذٍ أدرك مامبرس ، ذلك الرجل المسن الفاضل ، أي خطر تعرضت له ابنته الأميرة فقد عرف من كان حبيبها... نيبو ... أما هذا المقنع الأجاثي الذي أطار لبها فقد كشف ذلك الحكيم كل ما اكتنف الأمر من غموض . وهناك بواعث دعت مامبرس أن يسوس نفسه ببصر مستعيناً بحكمته في هذا الجو المفعم بالصعوبات . ذلك بأن الملك الشاب الوسيم العظيم القوي وقعت في شباك غرامه ، كان قد نزع والدها عن عرشه واستعاد أمازيس مملكته منذ سبع سنين ، ولم يعرف منذ ذاك الحين ماذا حدث للملك المشوق ، ثأر الأم ومعبودها ، وحبيب أمازيديا الخليق أما قتل العجل فسوف يكون سبباً في القضاء على الأميرة بهلاكها من غير أدنى شك .

ماذا يستطيع أن يفعل مامبرس في مثل تلك الأحوال الدقيقة الخطيرة ؟ ذهب بعد انقضاض الجمعية ليرى عن كثب الابنة التي ربّاها .

قال : « سأقدم لك خدماتي يا بنتي العزيزة ، لكن أعيدها على مسمعك ، فإنهم سوف يقطعون رقبتك لو أنك تفوهت باسم حبيبك .

أجابت أماريدا الفاتنة « ماذا تهمني رقبتي إن لم أتمكن من معانقة تلك التي أحبها إن والدي رجل قاس ، فإنه لم يرفض فقط أن يخطبني لأمير صقلية ، بل أطلق عليه الحراب ، وبعد أن قهره حبيبي ، وحد السر الذي قلبه عجلاً . أشاهد أحد قط من شيء هو أحلى وأشر من هذا ؟ لو لم يكن هذا والدي ، إذن لعرفت ماذا يجب أن أفعل به » .

قال مامبرس الحكيم « ليس والدك الذي خدعه تلك الخدمة النسائية ، إنما هو مولاي فلسطيني ، وهم أعداؤنا من قديم الزمان ، وكانت بلاده ضمن تلك المجموعة من الممالك التي أخضعها حبيبك ليطهرها ويصقلها » .

« ولا يجب أن تدهشك مثل هذه التغييرات ، فإنك تعلمين بأني قد قدمت إلى كثير من ذلك غرابة ، فلم يكن هناك من شيء في تلك الأيام أكثر اعتياداً من هذه التحولات التي تدهش الفلاسفة في الوقت الحاضر . وقد ينبئنا التاريخ الذي طالعناه سوياً بأن لوقون ملك أركاديا تحول ذئباً ، وتحولت ابنته قالسطة الجميلة دبة ، وتحولت إيرول ابنة النهر إيناخوس بقرة ، ودافنية شجرة غار ، وصيرينكس نايادة ، ثم ألم تزل إديث الطاهرة زوجة لوط ، أكثر الآباء والأزواج حناناً ورقة ، عموداً من الملح لاذع الطعم ، وحدث ذلك هنا في جيرتنا ، وقد احتفظت بكامل شكلها وجمالها ، كما شهد بذلك من رآها من عظام الرجال وشهدته في حداثتي ، كما رأيت أيضاً سبع مدن عظام قوية ، تقع في أيبس وأجف مكان من المعمورة تتحول بحيرة زاهية ، فقد كانت الدنيا في الجزء المبكر من حياتي مليئة بالتحولات . وعلى الجملة إن كانت تختلف الأمثال عن حوادثك ، فتذكري بأن القدرة قد حولت قرمسطين تحولاً »

قالت الأميرة « لست أعرف أن الأمثال تسلينا ، لكن إن كان حبيبي ميتاً ، فهل أفرج عن قلبي بفكرة أن الرجال يموتون » .

أجاب الحكيم « ربما خففت هذه الأمثال من آلامك بعض الشيء . فبعد أن صار حبيبك عجلاً ، فمن الممكن أن يتطور حتى يصير أنا ، فأرغب في أن أتحول نمراً أو نسناساً ، ذلك إن لم أكن استخدم ما لدي من قوة بسيطة في خدمة أميرة تستأهل عبادة الدنيا برمتها ، وإن لم أكن أعمل لأماريدا النفاسة التي ربيتها على ركبتي ، والتي تعرضت أسرتها المشؤومة لمثل تلك المحاولات النفاسية

الفصل الخامس

كيف تدبر مامبرس بحكمته

لما أن فصل مامبرس في تهدئة روع الأميرة وطابت مساعيه جميعاً في تعليتها ، هُرع الى العجوز وخاطبها قائلاً : « إن مهمتنا يا رفيقتي لفاتنة ، غير أنها عظيمة الخطر ، إنك تخاطرين بشنق نفسك ، وبقتل عجلك ولا أعرف ماسوف يتخذون بشأن حيواناتك الأخرى ، فإني نبيٌّ — ولا أعرف إلاّ القليل — لكن حاذري وأخشى الأفعى والحوت ، ولا تسعي لأحدهما أن يخاطر بالخروج من جحره ، ولا للآخر بأن يظهر برأسه فوق الماء ، أما العجل فسأتسمه في إحدى حفائري بأريف ، حيث تكرفين معه ، طالما أنك تقولين بأنه غير مسموح لك بتركه ، وفي هذه الحال يقوم التيس المطلق الفاضل من حين لآخر بالكفارة ، فسنرسله الى الصحراء محمّلاً بخطايا الآخرين جميعاً ، فإنه قد ألف وتعوّد إقامة هذه الشعائر التي لا تضره ، ويعلم الجميع بأن الخطايا جميعاً إنما يكفر عنها التيس الذي يتخذ من ذلك مسرّة لنفسه . ولي رجاء واحد ، هو أن أستعير منك كلب تربيت ، ذلك الصياد السريع ، وأتان بلعام التي تفوق سرعتها الحجين ، وغراب وحمامة سفينة نوح الذين تدهر سرعتهما الى الدهشة ، ذلك بأني أرغب في إرسالهم الى تفيس لتأدية رسالة ، ذات اعتبار عظيم .

أجابت العجوز قائلة : « يمكنك أن تستخدم كما يروق لك كلب تربيت ، وأتان بلعام ، وغراب وحمامة سفينة نوح ، لكن من المتعذر أن تأتمّ أقدام صغيرة حقيرة مثل فقد قيل بأنه لابدّ وأن يمثل دائماً موثقاً الى سلسلة حديدية ، سلالاً بندى السماء ، يرعى حشيش الحقل وأن يكون نصيبه مع الوحوش الضارية » .

« عهد به إليّ ، ويجب أن أطيع ، فإذا يطني دانيال وحزقيال وإرميا ، لو أني عهدت بعجلي لأيّ من الناس سواي ؟ أدرك بأنك تعرف سر هذا الحيوان الغريب ، لكن ليس

لي أن ألوم نفسي أو أعنفها لإماطة اللثام عن هذا السر لك . سوف أسميه إيضاً سر هذه الأرض المدنسة ، ميممة شطر بحيرة مريوت ، حيث يكمن في مأمن من نظر ملك تحس أنا حرتي وأنماي فيحسباني ، أضف الى ذلك أني لا أخشى أحداً رأنا أخدم سيدتي .

أجاب مامبرس الفطن : دعي ذلك لارادة الله يا سيدتي الفاضلة ، لكن يجب أن أعثر بعجلك ثانية ، ثم أن بحيرة مريوت وماريس وسردوم لهديتي القيمة بالنسبة إليَّ ، ولست أرغب في أن أفعل لكِ وله إلاَّ خيراً ، لكن لماذا تحدثت عن دانيال وحزقيال وأرسيا ؟ .

قالت العجوز ؟ عجباً ! إنك تعلم يا سيدي كما أعلم تماماً أي معلمة لهم في غلاة ، بيد أنه ليس لديَّ من الوقت ما أضيعه سدًى ، فلا أرغب في أن أشقى ، كما لا أريد أن يقتل عجلي فسأذهب الى بحيرة مريوت عن طريق كانوبوس بدعة حوتي وأنماي ، وداعاً .

تبعها العجل متأملاً مفكراً ، بعد أن اعترف بجميل مامبرس لحسن الكريم .

أما مامبرس المحنك ، فاختلجت نفسه باضطرابات جمة . ذلك بأنه أدرك أن أماريس ملك تنيس قد ثار غضباً وحنقاً من هيام ابنته الغريب بهذا الحيوان ، ولأنه اعتقد بأنها سحرت فسوف يطارد العجل الأبيض التعيس في أي مكان يلجأ به ، حيث يحرقه من غير أدنى شك ، كما كان يفعل السحرة في ميدان تنيس العام ؛ وإما أعطاه لخوت يونس ، أو شراد وأعده غذاء ، ورغماً عن كل هذه الاعتبارات أراد مامبرس أن ينقذ الأميرة من هذه الكارثة الشنعاء .

كتب خطاباً مليء بطابع القدسية ، الى سدنته كبير أساقفة تنيس ، وسطره على الورق المصري الذي لم يكن قد استعمل بعد ، وهذه كلمات الخطاب بذاتها

« يا نور الدنيا ، يا من يقوم مقام إزيس وأوزيريس وحوروس ، يا رئيس الكهنة ، يا من يعلو مذبحك على جميع العروش ! أخبرت بأن إهمالك العجل آبيس قد مات ، وعندي واحد تحت تصرفك ، فاحضر سريعاً بكهنتك لتعرف إليه ، وتقيم له واجبات العبادة ، ثم تصحبه الى حظيرة معبدك . أطلب إليك إزيس وأوزيريس وحوروس ، بحرمتهم الكلية التي أنت لها أهل ، وكذلك حوطوا كهنة منفيس بعنايتهم الشاملة » صديقك المخلص

مامبرس

كتب أربع نسخ من هذا الخطاب حفر الحوادث والمصادفات ، ووضعها في صناديق من الأبنوس الصلد المتين ثم دعى رسل الأربع الذين اختارهم لهذه المهمة (الأتان، والكلب، والغراب والحمامة) ثم قال للأتان :

« أعرف الاخلاص الذي خدمتني به أخي بلعام ، فاخدمني عنده ، ليس هناك من غرابيث يضارع مرعتك ، فاذهبي يا صديقتي العزيزة وسلمي هذا الخطاب المرسل اليه ومودتي »

قالت الأتان : « سأخدمك يا سيدي كما خدمت بلعام ، فسأذهب وأعود »

ثم وضع الصندوق في فمها وسرعان ما رحلت .

دعى كلب توبيت وقال : « أيها الكلب الأمين ، إني أعرف ما قمت به لتوبيت بن توبيت عند ما صحبته والملاك روفائيل من نينوة الى راجوزا في مقاطعة ميديا ، ومن راجوزا الى نينوة ، وأنه أعاد الى والده عشر طالنطات كان الأب العبد توبيت أقرضها الى السيد جابيلوس — لأن العبيد كانوا عظيمي الثراء في ذلك الحين — فاحمل هذا الخطاب الى حيث وجهته ، فانه يساوي أكثر من عشر طالنطات من الفضة »

قال الكلب : « إن كنت يا سيدي قد تبعت في قديم الزمان الملاك روفائيل ، فيمكنني مثل ذلك السهولة أن أقوم برسالتك » .

وضع مامبرس الخطاب في فمه .

وبعد ذلك تكلم مع الحمامة بنفس الطريقة فأجابت « سيدي ، إن كنت أحضرت غصناً الى سفينة نوح مرة ثانية ، فكذلك سوف أحضر لك ردّاً » ثم أخذت الخطاب في منقارها ، وفي لحظة توارى الرسل الثلاثة ، وتكلم بعد ذلك مامبرس مع الغراب .

قال : « أعلم أنك تذوقت الطعام الرديء ، ذلك النبي العظيم عندما كان مختبئاً بالقرب من السيل الجارف الدائم الصيت ، فكنت تمده كل يوم بالخبز واللحاج الضروري ، ولا أطلب منك أكثر من أن تحمل هذا الخطاب الى مدين » .

قال الغراب : « إنها الحقيقة يا سيدي ، اني كنت أحمل كل يوم غذاء اليشع النبي العظيم ، ورأيته مستطيباً مركبة سلطانية من النار تجرها جياد مضطرمة ، ذلك بالرغم من أن هذه الطريقة ليست وسيلة السفر العادية ، غير أني كنت أحرص دائماً على تناول نصيبي من الطعام لنفسي »

وسوف أحل خطابك بسرور عظيم ، على أن تؤكد لي أكلتين جيدتين كل يوم ، أضف الى ذلك أني أتقاضى أجر رسالتي مقدماً » .

قال مامبرس وقد تملكه الغضب « أيها الغراب اللعين ، إنه أمر لا يدهشني إن كان أبولون قد سوّدك لجملك كالشامة من بعد أن كنت أبيض كالنجمة ، فهل إن تحوّل كرونيس الجبلة التعيسة أم استقر لافيرس في سهول تسالية . أخبرني أكنت تأكل كلّ يوم شرائح لحم ودجاج عندما مكثت في سفينة نوح عشرة أشهر طوال ؟ » .

قال الغراب : لقد كان نصيبنا هناك كبيراً يا سيدي ، فكانوا يقدمون لحماً مشوياً لجميع الطيور التي من نوعي مرتين كل يوم ، كتلك التي لا تعيش على شيء غير اللحوم ، مثل النسور والصقور والحدئات وغيرها . كما كانوا يعدّون موائد السلخ والتمرو والثعالب والقرود والذئاب وهرر القطب بوفرة عظيمة واسرافه بالغ . أما أصحاب الامتياز في السفينة فكانوا ثمانية ، وهم الوحيدون الذين كانوا في العالم وقتذاك ، وقد شغلوا دائماً بالعناية بطعامنا وتنظيم أخونة ملابسنا ، وهم نوح وزوجه التي كانت تداني الستمئة سنة ، وأبناؤهم الثلاث وزوجاتهم ، ثم إنه لشيء مستحب لو أنك رأيت بأية عناية ولباقة ونظافة كان خدمنا الثمانية يقومون بخدمة أربعة آلاف من أشره الضيوف ، وذلك من غير أن يدخل عليهم أي اضطراب يمكن أن يثيره عشرة آلاف أو إثنى عشر ألفاً من الحيوانات الأخرى ، متدرجة من الفيل والزرافة الى دودة الحرير والدبابة » .

« أما ما حيرني وأدهشني ، فهو أن نوحاً مقيتاً ، غير معروف لدى جميع الأمم التي هي ذريته ، لكن هذا لا يهمني ، وعلى الجملة أريد مأدبة كبيرة وأجراً يتقد لي فوراً » .

حذر ما مبرس الثعلب الأريب أن يسلم خطابه لمثل هذا الحيوان المتبرّم الثرثار ، فتارتا على مضض ، غير أنه أضحى من الضروري أن يقف مامبرس على سفينة نوح إنه أمر العجل الأبيض ، فأمر خدمه الأذكياء الخلصين باتباعه ، وسار يتقدّم في هودج عاجي حاملاً النبل ، مهموماً دائم الفكر .

قال مناجياً نفسه : كيف أن هية ، هي سيدة لمعظم العالم تقريباً ، كما تفخر بذلك ويعترف به كثير من المتعلمين ، ثم إنها لا تعمي مطلقاً تلك الأحجار ؟ كيف تُعمى بعض

الأحيان الى جمعية البلّ العظيم بيناهي تزحف على الأرض ؟ بأية وسيلة تتمكن من دخول أجسام الرجال بقوتها الذاتية ليس الا ، وأن كثيراً من الرجال يدعون بأنهم يطردونها بوسيلة هي الكلام ؟ كيف يجهل الجنس البشري هذا ؟ تقدمت بي السنون ، ودرست طول حياتي. لكني أرى كثيراً من المتناقضات التي لا أتمكن من التوفيق بينها ؟ لا يمكن أن أضع بياناً لما صار اليه أمري ، ولا للاشياء العظيمة التي أجريتها قديماً ، ولا لتلك التي كنت مشاهداً لها . كل شيء له اعتبار ، ولقد بدأت أفكر بأن هذه الأرض إنما عاشت في المتناقضات ، كما قال قديماً سيدي زرادشت » .

وبينما هو منغمر في هذا التفكير الصبي الغامض ـ ككل الغيبيات ـ إذ بجمار ينشد أغنية إلهية ، قد اقترب من الشاطئ بزورقه الصغير ، ونزل منه ثلاثة أشخاص يبدو على وجوههم الاعياء ، نصف مدثرين بأسمال بالية ممزقة ، إلاّ أنهم كانوا يحتفظون تحت رداء الفقر بأكبر صفات العظمة . أما هم ، فكانوا دانيال وحزقيال وإرميا .

الفصل السادس

كيف قابل مامبرس ثلاثة أنبياء وقدم لهم طعاماً طيباً

عرف مامبرس أولئك الثلاثة العظماء الذين يشع نور النبوة من محياهم ، وذلك بأنه كان لا يزال يحتفظ بشيء من شعاع النور نفسه . انحنوا جميعاً أمام هودجه ، كذلك كانت فراية حنداسيم الباعث الأول في أن يدرك مامبرس أنهم أنبياء ، لا تلك الأقباس النورية التي انبعثت من رؤوسهم الفخيمة ؛ ظن مامبرس إنهم إنما حضروا ليستقوا الأنباء من العجل الأبيض ، وعندئذ ساس نفسه بلباقته المعهودة ، فترجل من عربته ، وتقدم نحوهم ببعض خطوات ، ولكن بأدب جم تحنى به للهابة ؛ ثم حياهم ، وأمر بأن تضرب لهم الخيام ، وجهز لهم غداء عندما أدرك أنهم في أشد الحاجة إليه . ودعى العجوز فقبلت الدعوة وحضرت تقود عجلها الأبيض .

قدم لهم نوعين من الحساء الفاخر ، وكانت المائدة الأولى عبارة عن فطائر من لسان الثيران ، وكباد الأنكليس ، وحشيش جاف ، ثم دجاج مطبوخ بالمسقى ، وحام معه كأس وزيترى ، ودندبين مع مرق السمك وحش الغراب وفطر البطاطا . أما المائدة الثانية فكانت مؤلفة من دجاج التدريج والحجال والمعاق وصنوف أخرى من المشهيات . وكان كل شيء منسق أعظم تنسيق ولم يكن هناك أبهى من الله كية ولا أبهى منها منظراً . لكن مع مامبرس الحكيم كل عناية بألا يتناول لحماً مسلوقاً ولا طعاماً ولا لساناً ولا ضرع بقر ، حتى لا يظن الملك السيء الحظ التعيس ، وكان بمقربة منه ، أنه يوجه له بذلك سباباً .

كان الملك العظيم التعيس يرعى بجواره ، ولم يشعر في وقت من الأوقات بمرارة ذلك الانقلاب الذي حجبه عن عرشه سبع سنين أكثر مما شعر به في تلك الأثناء .

وا أسفاه ! هذا هو دانيال الذي حرمني معلماً ، وهذه الساحرة التي تحرسني إنما

يقصرها أعظم الفرح والسعادة ، بينما أنا ملك آسيا قد خضعت لضرورة أكل الحشيش وشرب المياه » .

تجاذب الأنبياء والساحرة من بعد أن شربوا بإفراط من خمر أجداده وتدفق وفير أحاديثاً يشوبه إخلاص أكثر من ذي قبل .

قال دانيال : « يجب أن أعترف بأني لم أكن سعيداً في مغارة الأسد » .

قال مامبرس : « ماذا يا سيدي ! أوضعوك في مغارة أسد ؟ كيف حدث إنك لم تلتهم ؟ »

قال دانيال : إنك تعرف جيداً يا سيدي ، بأن السباع لا تأكل الأنبياء » .

قال حزقيال : « أما أنا ، فقضيت حياتي كلها أتضور جوعاً وهذا هو اليوم الوحيد الذي تناولت فيه طعاماً طيباً . أما إن قدّر لي أن أستمر في تلك الحياة مرة ثانية ، وكان في ستطاعي انتقاء مركزي ، فلا بدّ من اعترافي بأني أفضل أن أكون رئيس أساقفة في بابل عن أن أكون نبيًّا في القدس »

صاح إرميا : « لقد أمرت ذات يوم بأن أنام ثلاثمائة سنة وتسعون يوماً على جانبي الأيسر وأن يكون غذائي طوال هذه المدة خبز الحنطة والشعير والفول والعدس ، معطاة بأحجب الطرق ، ومع كل هذا فإني أقر بأن طعم السيد مامبرس أحسن مذاقاً ، إلاّ أن تجارة النبوّة لها مزاياها ، والاثبات على ذلك أن كثيراً يتبعونها »

بعد أن تكلموا بهذا القدر من الحرية ، تكلم مامبرس في الشؤون الحديثة ، فسأل الأنبياء عن سبب رحلتهم إلى مملكة فنيس ، فقال دانيال بأن ملكة بابل إنتقامها سورة غضب عظيمة منذ أن اختفى نبوخذ نصر ، وأنهم تبعاً لعادات البلاط ، اضطهدوا جميع الأنبياء ، أولئك الذين قضوا حياتهم والملوك تخضع عند اقدامهم تارةً ، وتضربهم بالسياط مئات الضربات تارةً أخرى ، وأخيراً أجبروا إلى الالتجاء الى مصر فراراً من هلاك جوعاً .

ثم تكلم حزقيال وإرميا ، وأسهبا في الحديث ، حول تلك المسائل الطيبة ، غير أنه كان من المتعذر أن يفهما . أما الساحرة العجوز فكانت دقيقة الملاحظة تحرر أمانتها ، وتابع حوت يونس حراسته وهو في النهر أمام الخباء ، وكانت الأفعى تلهو فوق الحشيش ، وبعد أن تناولوا القهوة ، مضوا ينجولون على ضفاف النيل ، فلما رأى العجل الأبيض أعداءه

الأنبياء الثلاثة ، فار خواراً رهباً وجرى نحوهم ، وقد استفزته شراسة ثالثة ، ثم لطمهم بقرنيه ، وهنا أنه ليس للانبياء من شيء إلهيّ غير جلد من فوق عظمهم ، فقد لاح بأنه حطمهم تحطيماً ، غير أن حاكم الكون الذي يدرك ويداوي كل شيء حوّلهم في الحال غربان زاغ ، واستمروا رغم ذلك في تعليمهم كما كانوا من قبل . كذلك تحدث هذا الانقلاب يوماً ما لبريديس ، وكثيراً ما حاكت الخرافات صفحات من التاريخ المتقدم .

كانت هذه الحوادث سبباً في خواطر جديدة شغلت عقل مامبرس .

قال : دعنا نحوّل ثلاثة أنبياء عظام غربان زاغ ، وهذا يجب أن يعلمنا ألاّ نتكلم كثيراً ، وأن نتطلب دائماً بصراً معقولاً ، ثم اعترف بأن الحكمة خير من البلاغة ، وفكر صيتاً كعادته عند ما وضع أمام عينيه هذا المنظر الجبار المخيف .

الفصل السابع

كيف أراد الملك أمازيس أن يبتلع الحوت العجل ولم يفعل

تارت سحب الغبار من الجنوب الى الشمال ، وسمع دوي الطبول والمزامير والقيثارات وضجيج الجند . تقدمت عدة فصائل على رأسها أمازيس ملك تنيس ، يمتطي جواداً عربياً يحلي سرجه غطاء مطرز بالذهب ، وأعلن الفرسان بأنهم سوف يقبضون على العجل الأبيض ويلقون به في النيل ليبلعه حوت يونس — ذلك بأن سيدنا الملك ، يريد أن ينتقم منه لأنه حجز ابنته .

أجهد مامبرس المسن الفاضل فكره ، وأدرك بأن الغراب الخبيث هو الذي أخبر الملك كل شيء ، وأن الأميرة خاطرت بحياتها .

قال للافمي « اذهبي في الحال يا صديقتي العزيزة وواسي ابنتي الربيبة ، أمازيديا الطاهرة . تضرعي اليها ألا تخش شيئاً رغم جميع الأحداث ، وارو لها قصصاً تخفف من قلقها واضطرابها ، فان القصص يطرب السيدات ، ويستطيع الانسان أن يكون ناجحاً في الحياة لو أنه تمكن من تنبيه عواطفهن إليه إلا » .

انحنى مامبرس أمام الملك وخاطبه قائلاً .

« لتعش دهراً أيها الملك ! إن قتل العجل الأبيض أمرٌ ضروري ، ذلك لأن وجهة نظرك دائماً على صواب . لكن قال مدبر الكون ، بأن الحوت يجب ألا يبلع هذا العجل قبل أن تجد تنيس إلهاً ينصب مكان ذاك الذي مات . إذن سوف تنتقم ، وترقى أملاكك لأنها مقدسة . إن تقواك لعظيمة ، حتى إنك لا تعصى لمدبر الكون مطالبه » .

أطرق أمازيس بعض الوقت في هدوء وفكر عميق ثم قال : مات الآله آبيس : طيب الله نفسه ! متى نظننا نجد عجلاً آخر يسود مصر المشرة ؟ »

أجاب مامبرس : « أسألك يا سيدي أن تنتظر ثمانية أيام »

قال الملك الشديد الندين « أجزت لك بها . وسأمضي هذه تلك الأيام الثمانية ، ثم أقتل عدوّ إبنتي » .

أصدر أمازيس أوامره تقضي بإحضار خيامه وطهاته وموسيقاريوه ، ليكونوا في خدمته تلك الأيام الثمانية ، وهذا ما رواه مانيثون .

داخل العجوز اليأس ، لأن العجل الذي تتعهده ، سيقضي بعد ثمانية أيام ، فكانت ترسل في الليل أشباحاً حتى تنفي الملك عن عزمه القاسي ، غير أن أمازيس كان ينسى كل شيء في الصباح تماماً كما كان ينسى تبويخ نعمر أحلامه

الفصل الثامن

الأفعى تروي قصصاً لمواساة أمازيديا

روت الأفعى لأمازيديا المساء بعض القصص لمواساتها وتهدئة روعها ، فقصت عليها كيف انها شفت قديماً أمة بأجمعها من لدغات نوع خاص من الأفاعي الصغيرة ، وكانت وسيلتها الى ذلك ، هي ظهورها فوق رأس سوطان ، وأخبرتها بانتصارات بطل نافس أمفيبيون ، وقارنت بين قوتهما . وكان لمفيبيون هذا مهندس طيبة ، وما كان عليه اذا أراد بناء بمدينة إلا أن يعزف أنغام الريفارون ، فتتجمع آلاف من الأحجار للمقرلة ، لكن حطمها البطل الآخر بأن استعمل أصوات قرون الكباش . فقد أطلق يوماً ما واحداً وثلاثون ملكاً قرناً في مملكة طولها أربع فراسخ وكذلك عرضها ، فأنزل عليهم من السماء أحجاراً جعلتهم أباديد ، ثم أوقف الشمس والقمر في منتصف النهار بين جيبون رأيالون في الطريق المؤدي الى بيت هورون ، وذلك ليستأصل شأفتها ، مقتدياً بياكوس الذي أوقف الشمس والقمر أثناء رحلته الى جزائر الهند .

أما التبصر المفروض في كل أفعى فيمنعها من أن تروي لأمازيديا الفاتنة شيئاً عن جفناه الجبار الذي نذر نذراً دينياً ، هو أن يقتل ابنته لو انتصر في معركة ، لأن في ذلك ما يملأ رأس الأميرة الجميلة فزعاً ورعباً . لكنها روت قصص عشرين الجبار ، الذي قتل ألف فلسطيني بعظمة فكٍّ أتان ، والذي شد ثلاثمائة ثعلب ذيولهم الى ذيول بعض ، والذي وقع في شباك غرام أميرة كانت أقل جمالاً وسحراً واخلاصاً من أمازيديا الرائعة ، كما روت لها حكاية سيدنم ودينا التعيسين ، وقصص روث وبرز الأعظم شهرة ، وقصص جودا وتامار ، وروبين وبلعام وقصص الملك سليمان العظيم ، وباختصار روت لها كل ما يمكن ان يلطف من حزنها .

الفصل التاسع

كيف حدث أن الأفعى لم تواس الأميرة

قالت أمازيديا وكانت سليمة الذوق حكيمة الادراك : « تثيرني هذه القصص جميعاً ، وليس لها شيئاً من الاعتبار عندي ، فليس لها من الجدارة إلاّ أن يرويها أيادي المجنون للاسكتلنديين ، أو يقصها دوتيشيل المضحك على الريلزيين . إن القصص التي كانت تطرب لها جدتي جدة جدة والدتي ، تظهر لي تافهة حقيرة حيث أنني تثقفت على يدي مامبرس الحكيم ، الذي طالع كتاب الفهم الانساني على لوك الفيلسوف المصري . وما دام الأمر كذلك فاني أرغب أن تقوم القصص على الأشياء المحتملة لا أن تشابه دائماً الأحلام ، كما أرغب ألاّ أجد فيها شيئاً من التفاهات والمبالغات ، وأود فوق كل شيء أن يكمن خلف مظهر تلك الخرافات بعض الحقائق المستترة التي تجلوها العين المبصرة ، ولو أنها تختفي عن ملاحظات العوام »

« إني لضجرة مشمئزة من الشمس والقمر اللذين كانا تحت إمرة مجوز شمطاء تلهو بهما ، كذلك تلك الجبال الراقصة ، والأنهار التي تعود الى منابعها ، والأموات الذين ينشرون ، إني لأشمئز اشمئزازاً فوق طاقتي عندما تكتب مثل هذه القصص التافهة وبطريقة مبالغ فيها بحيث لا يمكن إدراكها . إن المرأة التي تتوقع أن ترى حبيبها طعمة لحوت كبير ، وتجزع خوفاً لأن والدها سوف يقتلها ، هي في الحقيقة تحتاج الى العزاء والتسلية ، لكن واسي بما يرافق مزاجي »

قالت الأفعى « إنك تلقين على عاتقي مهمة شاقة ، كان يمكنني أن أقتل لك أربعة ساعات طيبة لو أني كنت في زماني الأول ، لكنني فقدت كلاً من ذاكرتي وخيالي منذ زمن بعيد . يا للحسرة ! ماذا حدث لتلك المقدرة والدراية التي كنت أبهج بها خواطر السيدات في قاعر

الزمان ؟ دعني مهما كان الأمر أحاول أن أتذكر رواية حقيقية أسليك بها » .

« حكم الملك أخناوف والملكة باترا طيبة بأبرابها المئة منذ خمس وعشرون الف سنة. كان الملك اخناوف وسيماً ، كما كانت الملكة باترا أكثر منه فتنة وجمالاً ، إلا أنهما كانا تعيسين ذلك لانه لم يكن لديهما وريث يحيي الاسرة المالكة من بعدهما .

« كتب أعضاء الأكاديمية الجراحية ، وجمهور علماء الطب مقالات عظيمة في هذا الموضوع ، وأرسلت الملكة لتشرب مياهاً معدنية : صلّت وصامت وتقدّمت الى معبد بريبتر آمون أغلى الهدايا ، ذهب كل ذلك هباء : وأخيراً ... »

قالت الأميرة « يا للسماء ! أرى النهاية واضحة ، فهذه النعمة ذائعة معروفة ، ويجب أن أخبرك بأنها تسيء الى تحشمي وعفتي . إرو اذن بعض القصص الحقيقية ذات المغزى ، والتي لم أسمع بها من قبل ، حتى تكملين بذلك معرفتي وتهذبين مرآتي كما قال المعلم لقرون المصري

قالت الأفعى الجميلة « إذن فهذه إحدى القصص التي لا جدال في صحتها »

« كان هناك ثلاثة أنبياء طاعنين بحشمين ، غير قانعين بأحوالهم ، وكانت رغبتهم للمتعة الخفاء هي ان يصبحوا ملوكاً ، ذلك بأنه لا توجد غير حفرة واحدة من مرتبة النبي الى مرتبة الملك ، وينظر الانسان دائماً الى أعلا الدرجات في سلم الحظ . أما ميولهم ورغباتهم فيما عدا ذلك من الأمور ، فكانت متباينة مختلفة تمام الاختلاف . الأول واسط ، يخطب في اخوانه المجتمعين لديه فيصفقون له استحساناً ، والثاني مغرم بالموسيقى غراماً جنونياً ، والثالث حبيب الجنس اللطيف الدائم »

« وبينما هم جلوس الى المائدة ذات يوم يتحدثون في فوائد الملك ، إذ تقدم اليهم الملاك إسرافيل قائلاً : « أرسلني اليكم مدبر الكون لأكافئكم على فضائلكم ، فلن تصبحوا ملوكاً فحسب ، بل ستتسلسون أيضاً ما تسلط عليكم من الشهوات . فأنت أيها النبي الاول ، سأنصبك ملكاً على مصر ، وسوف تتابع وأسرة جميلة التي ستتمتع بالتعضيد لبلادك وحكمتك. وأنت أيها النبي الثاني . فإني جاعلك ملكاً على فارس وسوف تسمع دائماً الموسيقى السماوية. وأنت أيها النبي الثالث ، فإني جاعلك ملكاً على الهند ، وأمنحك سيدة فاتنة الحسن والجمال تعاشرك أبد الآبدين » .

« بدأ ذلك الذي كانت مصر من نصيبه حكمه بأن عقد جمعيته ، وكانت تتألف من ستين حكيم فقط ، ثم خطب فيهم خطبة طويلة أثارت حماستهم فصفقوا طويلاً ، وانشرح الملك لهذا المديح الذي لم يدخله التملق . ثم خلفت جمعية الستين الخارجية الجمعية الخاصة ، وهذه كانت أكثر عدداً ، وقام فيهم خطيباً ، فتلقى مديحاً وثناء أعظم مما لاقى أولاً ، ولم تكن هناك من لحظة واحدة تنقص على ملك مصر هنائه وسروره ، كما أن شهرة بلاغته ملئت آفاق العالم » .

« وبدأ ملك فارس الذي حكمه بتمثيل أوبرا إيطالية ، كان يغني أناشيدها خمسة عشر ألف خصي ، وكانت تنفذ أصواتهم الى قصبة حتى تصل الى صحن عظامه ، واذا انتهت أوبرا تبعتها غيرها وهكذا دواليك » .

« أما ملك الهند ، فحبس نفسه مع السيدة ، يقضي بصحبتها أسعد الأوقات ، فانه كان يعتبر تملقها دائماً ضرورة ، وال في ذلك أعظم النعيم والهناء ، تاركاً حال أخويه التعيسين ، ذلك بأن أحدهما كان مجبوراً دائماً على عقد جمعيته ، والآخر في الأوبرا بدون انقطاع » .

حدث بعد أيام قلائل أن احتقر كل من هؤلاء الملوك وظيفته ، إذ يتأمل بعض الخطابين وهم في طريقهم الى عملهم في النيابة ، وكلٌ منهم يحتاط ذراع فتاته ترف بهم السعادة . حينئذ رجا الملوك الثلاثة الملاك اسرافيل أن يتشفع لهم عند مدبر الكون فيجعلهم خطابين .

قاطعها أمازيديا الحنون قائلة « لا أعرف إن كان مدبر الكون قد أجاب مطالبهم أم لا ، ولا أهتم بهذا كثيراً ، لكن أعرف جيداً بأني لن أطلب شيئاً يخص أيًّا من الناس لو أني مع حبيبي ، لو أني مع عزيزي نيوخذ نصر

دوت عبرات القصر بهذا الاسم الجبار ، أما أمازيديا فانها تفوهت أولاً قائلة نـ... ثم نيو... ثم نيو ... وأخيراً تحطها الاقصال وانشغف ونطقت بالاسم المشئوم غير مكترثة بالعبد الذي أقسمت به لولهما الملك . وردّد نساء البلاط جميعاً نيوخذ نصر . ولم يخفق الغراب الخبيث في أن يخبر الملك بما حدث . وهكذا كانت الأفعى وهي أكثر الحيوانات مكراً وحكمة ، تخدع النساء دائماً ، ظنًّا منها بأنها تقدم طوع خدماتها .

أرسل أمازيس وهو في ثورة غضبه اثني عشر عاملاً من عماله لابنته ، أما هؤلاء الرجال فكانوا دائماً على استعداد لتنفيذ الأوامر الملكية إذ كانوا يؤجرون على أدائها .

الفصل العاشر

كيف أراد الملك قتل الأميرة ولم يفعل

لم تكد تدخل الأميرة خباء الملك حتى صاح قائلاً « تعلمين يا بليتي ، بأن كل الأميرات اللاتي تعصين آباءهن يقتلن ، ذلك الأمر الذي يتعذر بدونه حكم مملكة على ما يرام . فقد حذرتك أن تذكري إسم حبيبك «نيوخذ نصر » ندوتي الذود ، الذي نزعني عن عرشي منذ سبع سنين ثم اختفى . وفي هذا المكان التقيت دجلاً أبيض ثم صحت : « نيوخذ نصر » ، اذن فمن العدل أن أقصل رأسك » .

قالت الأميرة « لقد ما أردت يا والدي ، لكن أنظرني قليلاً أرثي حظي التعيس » .

قال الملك « معقول هذا ، إنها قاعدة ثابتة عند معظم الأمراء العدول ، فأمنحك يوماً كاملاً تندبين فيه مصيرك كما ترغبين ، وباكر اليوم الثامن منذ ضربت خيامي هنا ، ففي تمام التاسعة صباحاً سيبلع الحوت العجل الأبيض وأقصل رأسك » .

فادرته أمازيديا الفاتنة تحف بها الأحزان ، وهي تزول من قسوته ، وأخذت تتجول على شاطئ النيل كالمذهول الضائع العقل ، يصحبها نساء حاشيتها .

وكان بجانبها مامبرس الحكيم يتأمل ويدمن النظر ، ويعد الدقائق والساعات .

قالت الأميرة « حسناً يا عزيزي مامبرس ! حولت ماء النيل دماء ، ولا يمكنك أن تحول قلب والدي أمازيس ملك تنيس ؟ أتحتمل أن يقصل رأسي في التاسعة من صباح الغد ؟ »

قال مامبرس المفكر « يتوقف هذا على سرعة رسلي واجتهادهم » .

في صبيحة اليوم التالي ، شدّ وثاق العجل الأبيض ، في اللحظة التي أعلن فيها قلّ المطلات والأهرام على صفحة الأرض السادة التاسعة . ثم استعدوا لقذفه لحوت يونس ، وأحضر الملك سيفه الكبير .

لا فيوخذ نصيبه من الغنيمة » واحسرتاه ! واحسرتاه ! أنا الملك ، ظلت مجلاً زهاء سبع سنين ، وما رجفت يدي في السنة التي قتلتها ، يحكم عليّ بأن يتلمني حوت ! .

أما أبيريس فلم يعتل ذكره في أكثر مما يشغله الآن ، وكانت تنمره طائفة من أفكار يائسة حزينة ، عندما شاهد من بعد ما كان يتوقعه . عندما لا عداد له يقترب شيئاً فشيئاً » ثلاث أشخاص ، هم إيزيس وأوزيروس وحوروس ، يتقدمون في نوبة من التعب والاحجار الكريمة ، ويصحبهم ثلة من حكام مقيرة ، ويتقدم هذا الموكب ثلة فنانين ، وأربعة آلاف كامن ، يتطلي كل منهم بفروسة ، وقد حلقوا جميعاً نواصيهم .

* * *

وعلى مسافة بعيدة ، وعلى تلك الأكمة والعشبة ، ظهرت شاة طيبة ، وكلب فيوسطة وهرة نوبب ، وتمساح أرسنوبه ، وعنزة منذز ، والآلهة المصرية الصغرى جميعاً ، قد حضروا ليفرضوا ولاءهم للعجل الأعظم — آبيس المختار — الذي اجتمع له من القوة ما لإيزيس وأوزيروس وحوروس معاً .

ومشى بين الآليهات أربعون كاهناً يحملون سلة هائلة عظيمة ، بها بصل مقدس ، غير أن هذا البصل الذي يملأ السلة كان في الحقيقة ، آلهة إذا تشبه البصل شبهاً كبيراً .

وعلى جانبي هذا الرتل من الآلهة أربعون ألف محارب على رؤوسهم الخوذات ، وعلى أفخاذهم اليسرى السيوف وجناب السهام في أكنانهم ، وبأيديهم الأقواس .

أما الكهنة فكانوا يرتلون أنغاماً مؤتلفة ، تمهج النفس وتذيبها حناناً .

« واحسرتاه ! واحسرتاه ! مات عجلنا ! سيكون لنا أكرم منه »

وأما أمازيس فأدهشه هذا المنظر الخارق ، فأغمد سيفه ولم يضرب عنق ابنته .